

تفسير ابن كثير

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ^ج وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ
لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ^ل وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ
وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ^ق وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ

يقول تعالى [مخبرا] عن يوم الفرقان : (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) أي : إذ أنتم نزول بعدوة
الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ، (وهم) - أي : المشركون - نزول (بالعدوة القصوى)
أي : البعيدة التي من ناحية مكة ، (والركب) أي : العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من
التجارة (أسفل منكم) أي : مما يلي سيف البحر (ولو تواعدتم) أي : أنتم والمشركون
إلى مكان (لاختلفتم في الميعاد) قال محمد بن إسحاق : وحدثني يحيى بن عباد بن
عبد الله بن الزبير ، عن أبيه في هذه الآية قال : ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ،
ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ، ما لقيتموهم ، (ولكن ليقضي الله أمرا كان
مفعولا) أي : ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله
، عن غير ملاء منكم ، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه . وفي حديث كعب بن مالك قال :

إنما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يريدون غير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثني ابن عليه ، عن ابن عون ، عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فالتقوا بدر ، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقت السقاة ، ونهد الناس بعضهم لبعض . وقال محمد بن إسحاق في السيرة : ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على وجهه ذلك حتى إذا كان قريبا من " الصفراء " بعث بسبس بن عمرو ، وعدي بن أبي الزغباء الجهنين ، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان ، فانطلقا حتى إذا وردا بدرا فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء ، فاستقيا في شن لهما من الماء ، فسمعا جاريتين تختصمان ، تقول إحداهما لصاحبها : اقضيني حقي ، وتقول الأخرى : إنما تأتي العير غدا أو بعد غد ، فأقضيك حقل . فخلص بينهما مجدي بن عمرو ، وقال : صدقت ، فسمع ذلك بسبس وعدي ، فجلسا على بعيريهما ، حتى أتيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبراه الخبر . وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر ، فتقدم أمام غيره وقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست على

هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال : لا والله ، إلا أنني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل ، فاستقيا في شن لهما ، ثم انطلقا . فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما ، فأخذ من أبعارهما ، ففته ، فإذا فيه النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب . ثم رجع سريعا فضرب وجهه بعيره ، فانطلق بها فساحل حتى إذا رأى أن قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجى غيركم وأموالكم ورجالكم ، فارجعوا . فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نأتي بدرا - وكانت بدر سوقا من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثا ، فنطعم بها الطعام ، وننحر بها الجزر ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا . فقال الأخنس بن شريق : يا معشر بني زهرة ، إن الله قد نجى أموالكم ، ونجى صاحبكم ، فارجعوا . فأطاعوه ، فرجعت بنو زهرة ، فلم يشهدوها ولا بنو عدي . قال محمد بن إسحاق : وحدثني يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير قال : وبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين دنا من بدر - علي بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، في نفر من أصحابه ، يتجسسون له الخبر فأصابوا سقاة لقريش : غلاما لبني سعيد بن العاص ، وغلاما لبني الحجاج ، فأتوا بهما رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - فوجدوه يصلي ، فجعل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسألونهما :
لمن أنتما ؟ فيقولان : نحن سقاة لقريش ، بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهما ،
ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما فلما ذلّوهما قالا نحن لأبي سفيان . فتركوهما ،
وركع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسجد سجدتين ، ثم سلم وقال : إذا صدقاكم
ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما . صدقا ، والله إنهما لقريش ، أخبراني عن قريش "
. قالا هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكثيب : العنقل - فقال لهما
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : كم القوم ؟ قالا كثير . قال : ما عدتهم ؟ قالا ما
ندري . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا يوما تسعا ، ويوما عشرا ، قال رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من
أشراف قريش ؟ قالا عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البخترى بن هشام ، وحكيم
بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن [نوفل ،
والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية] بن خلف ، ونبیه
ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود . فأقبل رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - على الناس فقال : هذه مكة قد ألقيت إليكم أفلاذ كبدها . قال محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى - : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم : أن سعد بن معاذ قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما التقى الناس يوم بدر : يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشا تكون فيه ، وننيخ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا ، فإن أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب ، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك ، وتلحق بمن وراءنا من قومنا ، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم ، لو علموا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، ويوادونك وينصرونك . فأثنى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيرا ، ودعا له به . فبني له عريش ، فكان فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر ، ما معهما غيرهما . قال ابن إسحاق : وارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما أقبلت ورآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تصوب من العقنقل - وهو الكثيب - الذي جاءوا منه إلى الوادي قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم أحنهم الغداة . وقوله : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) قال محمد بن إسحاق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة ، لما رأى من الآفة والعبرة ، ويؤمن

من آمن على مثل ذلك . وهذا تفسير جيد . وبسط ذلك أنه تعالى يقول : إنما جمعكم مع
عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد ، لينصركم عليهم ، ويرفع كلمة الحق على الباطل
، ليصير الأمر ظاهراً ، والحجة قاطعة ، والبراهين ساطعة ، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة
، فحينئذ يهلك من هلك أي : يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل
، لقيام الحجة عليه ، (ويحيى من حي) أي : يؤمن من آمن (عن بينة) أي : حجة
وبصيرة . والإيمان هو حياة القلوب ، قال الله تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا
له نورا يمشي به في الناس) [الأنعام : 122] ، وقالت عائشة في قصة الإفك : في هلك
من هلك أي : قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك . وقوله : (وإن الله لسميع)
أي : لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به (عليم) أي : بكم وأنكم تستحقون النصر على
أعدائكم الكفرة المعاندين .